حسين مهنا

ليس في الحقل سوسن للفرح

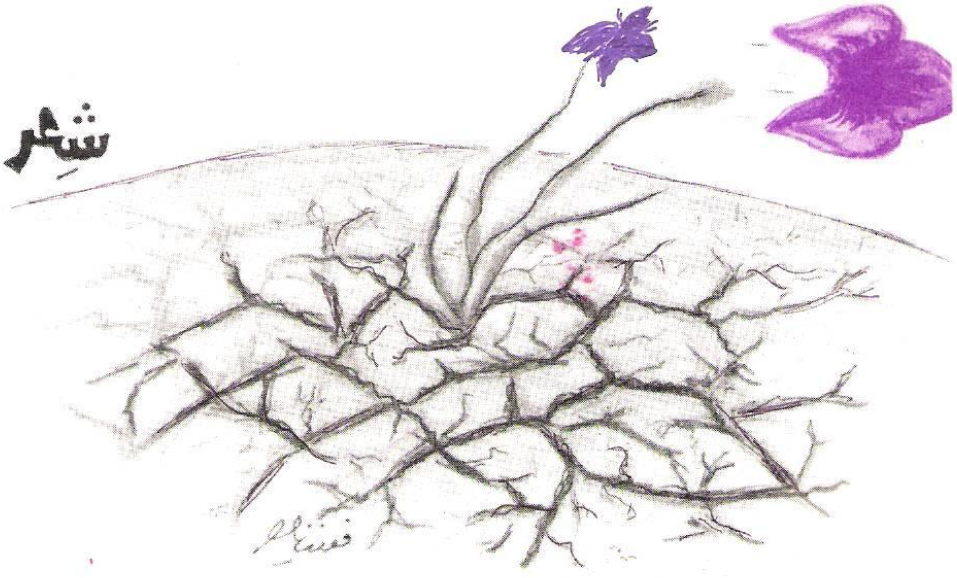

شعر

ليس في الحقل سوسن للفرح

شعر

حسين مهنا

١٩٩٥

حقوق الطَّبع محفوظة لِلشَّاعر

لوحة الغلاف بريشة الفنان فوزي ناصر

إصدار دائرة الثقافة العامة في وزارة الفنون

ليس في الحقل سوسن للفرح

ليس لي ما أرفع الآن سوى
نخبِ آلامي وصلبي المنتظَرْ
ليس لي ما أقضم الآن سوى
ظِلِّ تفّاحاتِ أوهامي
وَحُلْمٍ يُحتضَر .
ليس لي ما أبصر الآن سوى
بُؤس منفاي وإعدام القمرْ
ليس لي ما أسمع الآن سوى
زفرة الناي وأنّات وتر .
ليس لي ما أقرأ الآن سوى

نعي ليلايَ وتأبين السَّحَرْ
ليس لي ما أكتب الآن سوى
لحن مرثاتي
على وجه حَجَرْ
ليس لي ما أحمل الآن سوى
قبضةٍ من ريح أحلامي
وأشلاء صُوَرْ
ليس لي في غابة النّارَنْجِ إلاّ
ما تجود الريحُ من دمع الشَّجَرْ
ليس لي .....
يا ضحكةً جذلى توارت
بين أعوامي
وأوهامي
وطيّات الضَّجَرْ
عالمي متحف شَمْعٍ

فاشربيني ، غيمةَ الطيّبِ ،
وَصُبّي
كل أحزاني رذاذاً من مطرْ
وإذا ما فَفَّحَ الزهر
فقولي :

قد شربناه خريفاً
واشتهيناه ربيعاً مُنْتَظَرْ ! !

حزيران ١٩٩٤

عن حضور الذّات .....

..... عن غياب الفرح

قال : وقد تبدّت وحـدة الصّليبيّـين الأنجلـو / فرنسـيّين بقوّةٍ جديدة عندما نزلوا في لبنان وَانضمّوا الى الفرسـان الذيـن يحاصرون عكا . (ص ٢٠٧)

وقال : ففي ١١ تمـوز سنة ١١٩١ بـدأ هجـوم عـام . وفي اليوم التّالي استسلمت المدينة التّي أنهكها الحصار المديد .. ولإنقاذ حامية المدينة وافق صلاح الدين على دفع فديـة كبـيرة وعلـى عـدد مـن التّنـازلات الأخـرى . (ص ٢٠٩)

ميخائيل زاروبوف " الصّليبيون في الشرق "

ضاقت على جسدي البلادُ...

خلعتها ...؟!

وتركت في قلبي الجريح مساحةً

للياسمين وللعنادل والسَّحابْ

يتناقل الأطفال أخبار الجهادِ ،

سألتُ: هل أخذ الرِّجالُ إجازةً ؟!

وسألتُ : هل وجع الشُّعوبِ ينام في حجرٍ

ليرسم موسم الفرح الكبيرْ ؟!

وسألتُ : هل فرح الشُّعوبِ يُطلُّ من جرحٍ ،

ليرسم موطىء القدم الصَّغيرةِ ،

خلف أجفان الغزاةِ ،

وخلف أحلام النَّوارسِ تصنع الوطن الكبيرْ ؟!

ما كل هذا العشق يا وجع الأمومةِ ،

ليس لي قلب يصافح في جنون العشق أحلام الغزاةِ ،

وللغزاة مَهارَةٌ في نسج أحلام الحفاة الجائعينْ.

- حللٌ مطرّزةٌ
ومائدةٌ...
وفاكهة ....
وألوانٌ تجمعُ بعضها سِرّاً
لتمطر في نسيج الوقت أوطاناً على ورَقٍ
وأكفاناً مُلَوّنَةً..
وسقفاً من سرابْ .
ما كل هذا العشق يا وجع الأمومة
ليت لي قلباً يصافح في جنون العشقِ ،
أفئدة الغزاةْ ! !
عبثا يحاور جُرحيَ المفتوحُ أسبابَ الحياةْ ! !
عبثا يحاور جُرحيَ المفتوح في لغة العنادلِ ،
كلَّ ما برأ الإلَهُ من اللغاتْ .
وطويلةٌ سُبُل العذابِ
ثقيلةٌ لغة الحرابْ ..

وثقيلةٌ لغة السَّرابِ ـ هناكَ
لا مطرٌ يرطّب عشبَ أحلام الجياعِ
ولا الجياعُ يطالبون بغير ما قسَمَ الإلهُ ،
من الكرامة والتُّرابْ .
لقِحَتْ فأثقلها الوِحامُ ، تثاقلت
وتثاقلت معها الشّهورُ ،
فأثقلت قلبي الصَّديعَ بملحِ ما وهب الإله لأُمَّةٍ
تجري على قدمين حافيتينِ
هل ظلاً يلامس غفوة الموتى على طول الطريقِ ...
ثقيلةً تمضي الى خلجانها سُفُنُ العذابْ ! !
ضاقت على جسدي البلادُ
خلعتها ... ؟ !
وتركت في قلبي الجريح مساحةً
للياسمين وللعنادل والسَّحابْ ..
ولِحُلْمِيَ الآتي ..

سألتُ اللهَ أن يأتي كما تلد النِّساءُ
فتلك أعرافٌ تكمّل بعضها ..
- طلْقٌ ..
فقابلةٌ ..
فصمت النِّسوةِ المحفوظ في عُلَبٍ من الأرق الشَّفيفِ
فَبَسْمَةُ الرَّجُلِ الفخور بِقابِلِيَّتِهِ العجيبة لِلنِّساء
فنكهة اللَّوزِ المكسّر ..
والصنوبرُ في نقيع الزَّنْجَبيلِ ..
يُجَمِّعُ القلبُ الحزين سنابلَ الفرح الكبيرِ
ويستعيد الذِّكرياتِ ،
طرقتُ باب اللهِ بالصَّلواتِ
كي يأتي الوليد مُحَمَّلاً نوراً
وعافية وشكلاً نشتهيهْ ! !
وَمُزَيَّناً بملامح الخلف الأصيل عن السَّلفْ .
عربٌ أنا وقبيلتي

ونحبّ أنساب العربْ
عرب أنا وحليلتي
ونُشيدُ باسم اللهِ إن وهب الملاحة أو حَجَبْ
ولَكَم سألت اللهَ أن يأتي البشيرُ ..
سألتُ وجه اللهِ أن يأتي مع الفرح الكبير
فجاء مسخاً يحمل الوجع الكبيرْ .
وأحبّهُ ..... ! !
- أوليسَ من صُلْبي ؟ ! وفي الأصلابِ
تمتزج الأصالة بالهجانةِ
والجليل مع الحقيرْ ... ! !
يا أيها المولود مِسْخاً
قد نَطَرتك كل هذا العمرِ ،
فاشربْ دمعتي مِلْحاً ،
وَجِئْني بالمريء من المشيبِ
فقد قتلت على طريق الوهم أحلامي الصَّغيرةَ

والكبيرة مكرهاً - ،
ودفنت أوهام الشبابْ
يا من حملْتِ من العيون حزينَها
ومن القلوب طعينَها
ومن الطيور سجينها
ومن القبيلة من تعمّد بالضيَّاعِ وقال : لا أنسى ...
فتلك حبيبتي ، -
بيني وبين حبيبتي لغة الأعاجمِ
والمعاجِمُ والحرابْ ..
يا من قبضتِ من البلاد حِذاءَها
شُدّي على ذاك الحذاءْ ...
ولتعذري حزني
فقد هجع الفؤادُ
وأقبلت زُمَرُ اللّقالقِ
فالخريف يدقُّ باب الرُّوحِ في صلف الغُزاةِ ،

سألتُ : مَن رسم الحياة بريشة الحزن المُقيمْ ؟ !

وسألتُ : من رسم الحياة بريشة الحزنِ العميمْ ؟ !

وأظلُّ أسأل .. ثم أسأل .. لا جوابْ .

وأظلُّ أسألُ ...

والسؤّالُ هو السؤّالُ ...

..... وفي السؤّالِ ترفّ أجنحة العذابْ ! ؟

حزيران ١٩٩٤

عن طبقيّةٍ منسيّة

- عَ -

اللّيلُ يحمل نُطْفَةَ الفجر المُحَمَّلِ
بالأريج البكرِ ،
لا تبكي على الأطلالِ
يا عصفورة الفرح المهاجرِ
إنّ قلبي
يستعيد النّبض من غصص الحياةِ
وضحكتي
أخذت تُشكّل بعضها
في حلكة الوجع البهيمِ
وجذوتي نار تلملم صهدها

هل تنهض العنقاء إلاّ من رمادْ ! !

ـ نْ ـ

وأسائل الليلَ الظّلومَ
عن الذين تساقطوا
زُمَراً وأفراداً
وألقَوا فوق شاهدتي
خطاباتٍ منمقةً
ودَمْعاً وافرَ الإسمنتِ
ذنبي أنّني بشرٌ
وآكلُ لقمتي عَرقاً
تفصّدَ فوق سنبلة الحياةِ
وأنّني من نسل هابيلٍ

تناثر لحم أحفادي سماداً
يخصب الأرض اليبابَ
و كانت الطُّرقات
تشرب نخب أحلامي
و كانت فرقعات السَّوط تحكي
قصة الوجع المعتّقِ
هل يجيء الصُّبْحُ
كي يعفو على آثامه ملكُ الملوكِ،
و تستريح من الحكاية شهرزادْ ! !

— قَ —

قُلْ للّذينَ تعلّقت أحلامهم
في جفن (إسبرتاكَ)

ما زالت تُردِّدُ لحنها الباكي
أراغيلُ الحياةِ ..
هناك (إسبرتاكُ) يُصْلَبُ كلَّ يومٍ
خلف دور السّادة الشُّرفاءِ
في (روما) الشَّريفةِ
والعبيد هم العبيدُ ،
ودولة الفقراءِ
تفرش ظلَّها
عطشاً ومَسْغَبَةً
فلا كومونةٌ تُشفي
ولا غضب الرَّعاعِ يُعيد هابيلاً
لِيَثْأَرَ من أخيهِ
فيخلَعَ الضَّعفَ القديمَ
ويرتدي درعَ الجهادِ
يطوف داعيةً

وقد طفح المزايدُ والمزادْ !

- ١ -

كُرَةٌ هي الدُّنيا
تخاطفها فريق من ملوكٍ
فاتحينَ
وقادة ما همَّهم
أن يرجع الجيش | القطيعُ
الى مراعيه الخصيبةِ
حيث دفءُ الأهلِ
والحلم الجميلِ ...
وهمُّهُم ...
أن يحفظ الأطفال أخبار الفتوحات الجليلةِ

وانتصاراتِ الغزاة الفاتحينَ
فذاك أدعى للبقاءِ
وذاك يجعل أُمَّةً تبكي على أطلال ماضيها
وَتَخلُدُ للرُّقادْ .

ـ ٤ ـ

لا تعجبوا
إني أقصّ عليكمُ
حُلُماً تكاملَ
صار مِكْنَسَةً ومجرفةً
وناراً تشرب الرّيحَ السَّمومَ
وتختفي تحت الرَّمادْ
لتعودَ ثانيةً سعيراً

يأكل التّاريخَ
والحبر المزيَّفَ
يشرب اللَّيلَ الرَّجيمَ
ويرتدي فجراً تبارَكَ
بالجياع المُعدِمينَ ،
وقد تَنادَوا غاضبينْ :
هذي مناجلنا
وتلك مواسم الخير العميمِ ،
تجيءُ في الميعادِ
فانتفضي مُقَدَّسَةً ....
..... وقد أَزِفَ الحصادْ .

تشرين الثاني ١٩٩٤

تعالَيْ ..
الى واحةٍ ...
مُشْتَهاة ...

رجعتُ لذاتي
وقد ضاقت الأرضُ
سُدَّت على رفرفات جفوني
جميعُ المداخلْ .
بكى الحلم
أو ربما قد بكيتُ
وألقيت وجهي بقايا هشيمٍ
على لولبِ الرَيح

ما كل ذاك الضَّجيجِ
وأين الزَّوارقُ كي ترسل الروحُ
عشقها لِلسَّواحلْ .
لقد أذبلت دمعةُ العينِ
رمّانةَ القلبِ
هل لي بما يمطر القلبَ حباً
ويلقي بُدوراً على عُجمةٍ في اللِّسانِ ـ
... شموساً على برج بابلْ .
وهل لي بعينيكِ ميناء حبٍّ
وموجاً رقيقاً .. رقيقاً
يقبّل ساحلْ
تعالَيْ .. ! !
أو ربَّما قد أجيءُ
فإنّ الأمانيَّ قد تقبل الجزرَ والمدَّ ،
هذا زمان وفيرُ الغرابينِ ،

شَحَّ البلابلْ ..
تعاليْ عناةُ (١) -
بدون صهيلٍ تعاليْ ..
الى واحة مشتهاةٍ
فمِنّي الحقولُ
ومنكِ الجداولْ
ومِنّي الفصولُ
ومنكِ الخمائلْ
ومِنّي القصيدُ
ومنكِ الجدائلْ
ومِنّي البروقُ
ومِنّي الرعودُ
ومنكِ لطيفُ الشمائلْ .
لكم تشتهي الرُّوحُ أن يهجعَ القلبُ
في عسجد الصَّمتِ

خلف ضجيج الحياةِ
وبعد الرُّجوعِ الكبير ... هناكَ ...
نلوِّن دنيا بما تشتهينَ
ونبني على ضفةِ الرُّوح هيكلَ حبٍّ
يرحِّب بالعائدين رفوفاً رفوفاً
وقد أثقلتهم دروبُ الحياةِ
فعادوا أكاليلَ غارٍ ...
وسكّوا سيوف الجهادِ معاولْ .

كانون أول ١٩٩٤

* " **عناة** " أو " **أنات** " ربَّة الخصب والنَّدى عند الساميِّين القدماء وهي أخت الإله " **بعل** " إله الخصب والإنبات . وهي أيضا زوجته .

لوحة تجريديَّة ...

همس الشّاعرُ في أُذْنِ ربابَهْ
قبِّلي جرحي
فإنّي قد طعنتُ القلبَ
كي أنهي شبابَهْ
وقتَلتُ الحلمَ كي أحيا بلا حُلُمٍ
وتقتلني الرَّتابَهْ
زمن كالصِّلِّ يمتصّ رحيقي
ثم يسقيني على مهل لعابهْ
لستُ أبكي
لا تقولوا إنَّهُ دمعي

فعيني من زجاجٍ
تذرف الوهم على أطلال قلبي
ثم تسقيه سرابَهْ .
أين دربي ؟ !
لا تقولوا قد أضعتُ العمر محمولاً
على نهد سحابَهْ
أركب الريحَ وظنّي
أنّني نسرٌ ..
ولكنّي ذُبابَهْ
لا تقولوا ..
..... خاب ظَنّي
فشربت الليلَ أحزاناً
وجاء الصُّبحُ محمولاً
على نقّالة الموتى
وألقى حكمة التّاريخ في حضني

وأودعني كتابَهْ .

ـ باطلٌ من يدخل التّاريخ من شُبّاكه الخَلْفِيِّ

زُلْفى

دون أن يَقرعَ بابَهْ .

كانون أول ١٩٩٤

أعيدوا الى قبرها جُثَّتي ..

(... عن سحماتا وقرى أُخرى ...)

(١)

لقد بُحَّ صوت الكمان الفريدْ
وقد ذَبُلَتْ أغنياتُ الحصادِ
وصارت أناشيدنا سوسناً من حديدْ
وغاب عن الأفق طعم الحياةِ
وما غيّبَ البعد والحزن ـ ذاك الزَّمانَ ـ ..
كأنَّ الزَّمانَ هناكَ
ينام على بيدرٍ من حريرٍ

إذا ما أفاقَ ....

يعود ليغفو على حلمه من جديدْ .

(٢)

أتذكرُ يا بدرُ طعم الصَّديدْ ؟

أتذكرُ كيف خلعنا قرانا ـ بأمر الغزاة ـ

وتحت عيون البنادقِ ...

سرنا عراةً

تركنا ملامحنا خلفنا وانتحرنا

الى أينَ .. ؟ !

قال اليمام الحزينُ

لمن تتركون مواقد نار العشاءِ

ومن سيردُّ السَّلامَ لضيف المساءِ ،

ـ إذا ما أطلَّ ـ .. يقول هلا ! !

تعالَوْا ..
سيأكل خبزَ طوابينكم عابرونَ ، إذا لم تعودوا ،
وقهوتكم ...
ستشربها فرقةٌ من جنودْ .

(٣)

هناكَ .. وخلف الضبَّاب الكثيفِ
بعقل البصير الكفيفِ
كأنّي أرى قريتي صِبيّةً يمرحونَ .
وسربَ حمام ومعزى ، ونايًا يُنَغِّطُ قلب الحزينِ .. رُعاةً يمدّونَ أحلامهم نحو قَصْرِ الأميرة بنت الأميرِ .. أراها مساطِحَ تبغ .. بيادر قمح وحبٍّ .. حواكير تشرب طلّ الصبَّاح لتزهر تيناً وجوزاً ولوزاً .. كأنّي أراها طوابين تجمع كلَّ النِّساء يثرثرن عند المساء ، يزوّجن كلَّ الصبَّايا لكلِّ الشبَّاب ويصنعنَ

حلوى و كعكاً شهيّاً وخبزا .. أراها .. أراها ..
كأنّي أرى وجه ذاك الزّمان السّعيدْ ..
كأنّيَ أسمع وقعَ حوافر مُهْرٍ شريدٍ طريدْ ..

(٤)

خذوني الى قرية قد غيّر البُعْدُ والحزن وَجْهَهَا
وقطّنَ تينُ الكرومِ - كما كل عام - ،
وصبّارُنا أعلن الموت جمعاً
وصارت حواكيرنا ملعباً من فتات الجليدْ
خذوني ...
فما أضيَقَ الأرضَ من غير ذاك المكانِ
وما أوسعَ القبر تحت العريشِ - هناكَ -
وفوق رفات الجدودْ .

(٥)

لقد بُحَّ صوت الكمان الفريدْ
وقد ذبلت أغنيات الحصادِ
وصارت أناشيدنا سوسناً من حديدْ .
سكبنا على الجرح ورداً
وسرنا الى خيمة الصُّلحِ ،
نصلاً يقبّل ثغرَ الوريدْ .
فقبل طقوس الزَّفافِ الحزينِ
أعيدوا الى قبرها جُثَّتي
فقد ملّتِ العين أن ترى ...
قبرها ....
من بـ ..عـ ..يـ ..دْ ... ! !

كانون أول ١٩٩٤

كأنّي على صهوةٍ ...
من سراب ...

كأنّي على صَهْوَةٍ من سرابْ
وهذا الفؤاد بقايا مرايا
تُرجِّع ضوءَ الحياةِ ،
ظِلالَ نخيل عقيمٍ
إذا جامعته الرِّياحُ
يجفّ قليلاً قليلاً
ويُلقي على وحشة اللَّيلِ ظلَّ اغترابْ .
سألتُ الزَّمان الهجينَ

لماذا يجفّ النّخيل الحزينُ
وماء السّماء وفيرٌ
وهذا الرّبيع صهيلٌ
يُقَاسُ أرض الينابيعِ
ويحمل في ناظريه الصبّا والشّبابْ .
سألت الزّمان الهجينَ
توقّفَ ....
أغمضَ عيناً
وفتّحَ عيناً
وصوّبَ نحو الفؤادِ ..
وأفرغ كلّ الرّصاصِ الثّقيلِ
وقبّلَ ثغر المسدّسِ تيهاً - تبسّمَ - ..
..... إنّي أموتُ ! !
أتسمعُ ؟ إنّي أموتُ ... ! !
أموت وبين الحشايا سؤال يموتُ

وبين الجفونِ اشتهاءٌ
يراودُ سرَّ الجوابْ .

شباط ١٩٩٥

لماذا تسير وحيداً ... ؟

لماذا تسير وحيداً
وتحمل بين يديك مزامير داودَ ،
ترفع وجهك نحو السّماء اغتفاراً
لماذا ؟
لقد أثِمَ الآثمون وناموا
وأنت تسير وحيداً
وترفع وجهك نحو السّماء اغتفاراً
إلامَ تظلّ تسير وحيداً
ووجهك نحو السَّماءِ
وقلبك يحمل وِزْرَ الرَّعايا

هُمُ الخاطئونَ
وأنت تذُبُّ الخطايا
تمهّلْ ... ! !
فما الرِّجسُ رِجْسَ سدومَ
وما أنتَ لوطَ ،
لِتشربَ ظلم البغاةِ
وتمسح رجس البغايا
دعِ الأمر يحملْ ملامح هذا الزمانِ
فما أنت غير متاعٍ قديمٍ
ومجدك أمسى حكايا ...
إلامَ تظلُّ تسير وحيداً ... ؟ !

شباط ١٩٩٥

أحقّاً ترى ما أراهُ ... ؟ !

أحقا ترى ما أراهُ
ولستُ أرى ما تراهْ ؟ !
كذا يُمحِلُ العمرُ ،
- في أوّلِ العمر-
إنّي أحبُّ الحياةَ
فلا تقتل الوقت بالفلسفاتِ
وقد يهرب الوقت من راحتينا
ويمضي الى حيث لا يَرْفَأُ الحبُّ ،
صدعاً عميقاً عميقاً أراهْ !
ترى هل ترى الآن ما أراه ؟

وهل يستعيد فؤادك يوماً ثيابَ الرّبيعِ
لِيَخرُجَ في المهرجان الكبير شباباً
يصفّق للعابرينَ
ويضحك مِلْءَ الفضاءِ
ولا يستريحُ ...
كذا يُستعادُ لهيب الحياةِ
إذا أطفأته الرِّياحُ ،
ويسقطُ فُلاًّ على راحتينا
فأبصر ما قد تراهُ
وتبصر ما قد أراهْ ! !

شباط ١٩٩٥

نزلتُ على درج الذِّكريات ...

نزلت على درج الذِّكرياتْ

تعثّر ظِلفي ...
سَقَطْتُ على دمعة فاترَهْ
نهضتُ
وقد بلَّلَ الحزن معطفيَ المخمليَّ
سألتُ..
أَلم يَعْمُرِ القلبُ بالوردِ يوماً ؟ !
نهضت يَلفُّ الفؤادَ اغترابٌ ثقيلٌ
وحولي ملايين من غرف مقفلاتْ ،

جمعت أناملِيَ الرّاجفاتِ
على قبضة حائِرَهْ
طرقت بُوَيْباً كثلج الشتّاءِ
لعلّي أشمُّ أريج الطّفولةِ
آهٍ ... أريج الطّفولةِ ...
دارت مفاتيحُ ....
صرَّت سكاكِرُ
ندَّت عن الرُّوح شهقة طفلٍ كسيرٍ
رآني ...
تراجع نحو الوراءِ
إليَّ حبيبي ..
إليَّ ..
لقد صدِأَ القلبُ والحبُّ
أين يداكَ .. إليَّ ... ! !
وراح الضبّاب الكثيفُ

يُغَيِّبُ بسمةَ طفل كسيرٍ

بعيدٍ قريبٍ ...

قريبٍ بعيدٍ ...

هناك تفتّحَ قَبْرٌ على حُفنةٍ ...

من رُفاتْ .....

شباط ١٩٩٥

لقد زارني الموتُ ....

لقد زارني الموت أمسِ
فقلتُ :
تعالَ غداً
لَعلّي أكون قد ارتحتُ
من شقوة اليومِ ،
إنّي أحبُّ التقاءكَ
وجهاً رضيّاً
وقلباً قليل العناءْ .
وفي الغد جاء بوجه عبوسٍ

فقلت : تعالَ غداً

سأسهر هذا العشيَّ

مع الأهل والأصدقاءْ

وفي الغد جاء بوجه غضوبٍ

فقلت : تعال غداً

فإني وعدت صغيري

بأنْ سَأَقُصُّ عليه

حكاية (أُمِّ الرَّمادِ) * الأميرةِ ،

هذا المساءْ .

وفي الغد جاء بوجه المحاربِ

قلت : تعالَ غدا

سأصحب زوجي الى السّوقِ

كيما نقوم ببعض الشّراءْ .

وفي الغد جاءَ ....

فقلت : تعالَ غداً ...

وفي الغد جاءْ...

فقلتُ....

شباط ١٩٩٥

* إشارة الى قصَّةِ الأطفال المعروفة " سندريلا " .

حَلَمْتُ بأنّي رجعت صبيّاً ...

حلمتُ بأني رجعت صبيّاً ،
أجالس ظِلّي ..
وألعب جُلّ نهاري
على كومَةٍ من ترابْ
وأركبُ بحر الخيالِ
وأبحر في زورق من لُجينٍ
الى جُزُرٍ من عقيقٍ مُذابْ
وأصعد برج السماء الإلهيّ
أقطف ما أشتهي من نجومٍ
وأسرق طيف الشتاءِ

لأنسج بذلة عيدٍ
وشالاً ...
وأرجع قبل الغيابْ
... الى حضن أمّي ...
لماذا حلمتُ
وقد نسي القلب طعم الرِّضا والرُّضابْ ؟ !
هنا عالَمٌ من حديدٍ
وقد يخنق الحبَّ
قد يسحق القلبَ ،
يقطف ورد الأمانيِّ
حيث يشاء وحين يشاءُ
ويهدم دوراً على أهلها ...
وقد يقتل الطّفلَ مُسْتَذْكِراً درسه في الكتابْ ! !

شباط ١٩٩٥

لقد مرّ بي ...

لقد مرّ بي
قلتُ مهلاً أيّها الظّلُّ
لا تحمل العمر فوق جناحيكَ
إنّي عبرت الحياة على دمعتينِ
وما زلتُ أنتظر العندليبْ .
وما زال في القلب بعض اخضرارٍ
فهل يزهر الحلمُ ،
ـ بعد انتظارٍ ـ
ويعشِبُ حقل الحياة الجديبْ ؟ !
وهل بعد خمسين عاما من التيّهِ

أحمل لوح الوصايا
وأدخل عهد الحياة الجديدَ ،
على موجة من شفيف الأمانيِّ
إني وهبتكَ يا بؤسُ ، ريعَ الشبابِ
فهلاّ رحلتَ ..... ؟ !
لقد أقبل البرد قبل الأوانِ
وها أنذا في الهزيع الأخيرِ
فلا تبصر العينُ إلاّ حفيفَ الخريفِ
ولاتسمع الأُذْنُ إلاّ .....

هسيسَ ....

المشيبْ ....

شباط ١٩٩٥

أراكِ على تلّة من بعيد ...

أراكِ على تلَّة من بعيدٍ
وقلبي رمادْ ..
فما بالُ ذاكَ السّحابِ
يمرُّ سريعاً ..
قد انتحر الورد شوقاً
و لم يَبْقَ في الصَّدرِ غير القتادْ .
تعاليْ...
كأنّي - إذا لم تجيئي - بقايا سرابٍ
على شاهد القبرِ
هذي أكاليل غارٍ

وتلك صبايا القرنفلِ
تحمل نعشَ الرّبيعِ ...
لقد صدِأَ المنجل اليعربيُّ
ولم يبقَ في الحقلِ غير هشيمٍ
على أغنيات الحصادِ تنادي :
تعالَيْ .... !
إذا ما أتيتِ
سينبت قمح جديدٌ
ويولد صيف جديدٌ ...
وليلٌ يُعدّ العِتادَ ....
لِيَبْدَأَ عُرْسُ الحصادْ .

شباط ١٩٩٥

عدا خلف داري ...

عدا خلف داري يُحمحِمُ
قلت : احضنيني
فهذا صباح جميلٌ
يطلّ على شرفة الرّوحِ
من ضحكة المِئْذَنَهْ .
إلى أين يا مُهْرُ تعدو
وقد هلكت من نعاسٍ جميعُ الجيادِ
ونام الفوارس يسترجعونَ ،
روائح نصر قديمٍ .. قديمٍ
ويبكون كلَّ رهانٍ

فقد أسِنَ القلبُ
واحدودَبت قامة السَّوْسَنَهْ .
عدا خلف داري يُحَمْحِمُ
قلت : احضنيني ..
فبين المروج عذارى
يُجامِعْنَ ضوءَ الصَّباحِ الجميلِ
ويوقظن كلَّ النيِّامِ
على قبلة مُعْلَنَهْ .
تقول النّجومُ :
ستمطر وردا ـ إذا ما لقحنَ ـ
وتغسل بالمسك أسطحَ دورٍ
لواها الحنينُ
فأرست جذوراً
و كانت على حزنها سادِنَهْ .
عدا خلف داري

يحمحمُ

قلت : احضنيني ....

لكم تاقت الروح أن تنزف العمرَ ...

... في قبلةٍ فاتِنَهْ .

شباط ١٩٩٥

لقد أوجعَ القلبَ .....
طولُ الرَّجاءِ

لقد أوجع القلبَ طولُ الرجاءِ !
وضاعت على الدَّربِ
رَيْحانةُ العمرِ
لم يبقَ في الصَّدرِ ،
غيرُ رماد الطُّفولةِ
غير ظلال غرام بريءٍ
ورائحةِ الغارِ ،
تحمل قلبي السّجينَ
الى غابة الكستناءْ .

لقد علق القلب عينيكِ

ذاك المساءْ ...

تساءلتُ : هل يجمِّعنا الصبُّحُ

قلتِ : على شُرفةٍ في الفضاءْ

و كان الصِّغارُ يَلُمُّونَ أطرافَ عيدٍ

على وَشْكِ أن يلبس الوقتَ ،

فضفاضةً من حرير الشَّفَقْ .

... مضينا

كأنّا مضينا الى لا لقاءْ

مضينا ..

وضاعت على الدّربِ

ريحانة العمرِ

لم يبقَ في الصَّدرِ

غير رماد الطُّفولةِ ،

والوعدِ...

غير ظلال غرام دفينٍ

وعينيكِ ...

... ذاكَ المساءْ ! !

شباط ١٩٩٥

سأُفعل كلَّ الذي تطلبين

سأفعل كلَّ الّذي تطلبينْ
ولكن
دَعي القلب ينعَ الزَّمان الكريمَ
ويبكي ..
فقد سقطت دولةُ الياسمينْ .
سأفعل كلَّ الّذي تطلبينْ .
سأشرب فنجان قهوتيَ المرَّ،
- كي يحلُوَ الصبح - أمضي ،
الى الشُّغلِ طَلْقَ المحيّا
وأرجع بعد نهار شقيٍّ...

تماما كما يفعل الآخرونْ.
سأنعم بعد الغَداءِ
بنومة بعد الغَدَاءِ
تماما كما ينعم الآخرونْ.
وسوف أذاكر درس الحسابِ ،
لطفلي الضَّعيفِ بدرس الحسابِ
أردّ على الهاتف المستغيثِ ،
أردُّ على نقرة البابِ ،
أبسم كي يفرح الزائرونْ .
وعند المساءِ
سنجلس غرقى بسخف المسلسلِ
- دون حديث - سنجلسُ..
ننعسُ - دون حديثٍ - ننامُ ...
ويطلع صبح جديدٌ
لأفعَلَ كلَّ الّذي تطلبينْ .

سأفعل كلَّ الّذي تطلبينْ
ولكنْ
دعي القلب ينعَ الزَّمان الكريمَ
ويبكي ...
فقد سقطت دولة الياسمينْ .

شباط ١٩٩٥

أراها على بعد ضَوْعَةِ عطر ....

أراها على بعد ضَوْعَةِ عطرٍ
تربُّ القرنفلَ
في شفتينِ
وتلبس ضوء الصبَّاح وِشاحاً
وغنْجُ التَّصابي
يعيد انتسابي
الى جوقة العاشقينْ .
أراها
وقد جمّلت للفؤادِ
الصبَّاح الجميلَ ،

وأمطرتِ الصَّدر طلاًّ
فقد يبس الحقلُ
وارتحل العندليبُ
ولم يبقَ في الرَّوضِ
إلاّ الأسى والحنينْ .
أراها على بعد ضوعة عطرٍ
تشدّ الحياة الى مقلتيَّ
وبعد السُّباتِ الطَّويلِ
تردّ الرَّبيع لقلبي العجوز الحزينْ .
إذا ظهر الغيمُ
بصَّصَتِ الأرضُ
واستسلم المحلُ ،
عادت تباشير فجرٍ ،
يُطِلُّ على مدن الحزنِ ،
يفتح كل الدروب لِطَيرٍ سجينْ .

أطِلّي ...
فما ظهر الغيمُ
واستفحل المحلُ ،
أرضي يبابٌ ....

... وطيري سجين ..! !

شباط ١٩٩٥

عن طفل وطفولة ...
... ومنمنمات على جهات الذاكرة ...

(١)

حمل الدُّنيا كرةً
وجرى نحو الملعبِ
قادته الخطواتُ
الى درب التبّانةِ
ملأ السلّة أحلاماً
وترجّل عن صهوة قوس قزحْ .
حمل الدُّنيا ذاكرةً ..

قطعة حلوى ...
وحكايا عن غده الآتي ...
حمل الدُّنيا ...
وغفا فوق حرير النَّومِ
تمطّى بين رموش الأُمِّ الوسنى
وتغطَّى بترانيم فرحْ .

(٢)

كان على قارعة الدَّربِ
يراقص خيطاً ذهبياً
نسجته الشَّمسْ .
مرَّ الغيمُ
فألبسه ظلَّ البردِ ،
انقطع الخيط الذَّهبيُّ

بكى ....
شتم الغيمَ .....
ولكن بالهمسْ .

(٣)

ركب الريحَ جواداً
ومضى يلهثُ خلف نداء الرُّوحِ
ويبحث عن مدنٍ
خلف حدود الثّلجْ .
ركب الرّيح جواداً ...
مرّت عاصفةٌ
سقط الفارس مرعوباً
من فوق السَّرجْ .

(٤)

كان ابنُ ثمانٍ ...
حملته بين ذراعيها
شرب الدِّفْءَ
وأغفى ما بين النَّهدينْ .
هبط قليلاً
أخذته الرَّعدةُ
حرقته النَّشوةُ ...
كان ابنَ ثمانٍ
صار ابنَ ثمانينْ
في رمشة عينْ .

(٥)

أخذت أطرافَ أصابعهِ

شدّته إليها ...

انشدَّ

وسارا نحو شُجَيْرَةِ غارٍ

خلف ظلال القَرَيَةِ

جلسا ...

وفؤادٌ أزغبُ

يتنفّض في جَنْبَيهْ

أتعبه الصَّمت

فأغضى

أتعبها الصَّمتُ

فمدّت راحتها

تمسح في رفقٍ

حيرته المجنونة في خدَّيهْ

... حين أفاق استطلع عينيها ..

رشّت فيروزاً في عينيهْ

(٦)

لبس الفقر رداءً
أكل الفقرَ رغيفاً
من غير إدامْ
عشق الدُّنيا
حُلُماً يعدو نحو حقول السَّوسنِ
خلف حدود المدنِ الجوعى
سمع الدُّنيا وَشْوَشَةَ خزَامْ
رسم الدُّنيا مرجاً أخضر يمتدُّ ... ويمتدُّ ... ،
وبحراً أزرقَ
وسماءً زرقاءَ ...
... وسربَ حمامْ .

(٧)

أرعبه اللَّيلُ

فأكثرَ من ذكر اللهْ
أفزعه الرَّعدُ
فأكثر من ذكر اللّهْ
أوجعه الداء
فأكثر من ذكر اللهْ
أحزنه الموت
فأكثر من ذكر اللهْ
أفرحه الغيم الماطر حُبّاً
فأحبَّ اللهْ .

(٨)

خُذْني يا أبتِ
كي تحفظ ذاكرتي
لونَ البحرْ .

وغفا يستافُ الفرحَ
ويرسم عكّا ..
عكّا كأس عصير .. حلوى
وسماءً زرقاءُ
... وبَحْرْ .
طلع الصبُّحُ
وسافر والدُهُ ...
ظلّت عكّا في عينيه الدّامعتينْ
حُلُماً أخضرَ
وسماءً زرقاءَ ... وبَحَرْ .
قاطعةً أنياب الفقرْ ! !

(٩)

قالت : ألِفٌ باءْ

نقّ الأطفالْ

" أِلفٌ .. باءٌ .. تاءٌ .. ياءْ "

كنّا في الصّفّ الأوّلِ

ندرج كالحجلِ حواليها

قامتها رمح عربيٌّ

عيناها ليلٌ حاصره الصبُّحْ

راحتها ناعمةٌ كالقطن على الجرحْ .

غيّبها الليلُ ..

وبعّدنا البعدُ

وظلّ الطفّل العاشقُ

يعشق عينيها اللّيلَ

وراحتها القطنَ ...

... ويعشق قامتها الرُّمحْ .

(١٠)

ركض الأطفالُ
فأخذت يدَهُ
غنّى الأطفالُ
و كانت يَدُهُ
ترعى العُشْبَ الأخضر في يدها .
وشُباطُ كريمٌ
فانفلشَ اللّوزُ بَياضاً
يمسح أحزان التلّ
ومعلّمة الصَّف الأوَّلِ
قلب أخضرُ طول العامِ
ملكةٌ ...
والأطفال خَلِيَّةُ نحلْ .

(١١)

وقفا خلفَ جدارٍ
قبّلها ...
ضحكتْ ...
ردّت بحنانٍ قبلتهُ .
ضحك الأهل وقالوا :
طفلٌ ...
وجمال الطِّفلِ براءتُهُ .

(١٢)

أين تنام الشَّمسْ ؟ !
ـ خلف حدود العتمةِ
في مهدٍ ذهبيّ

أين ينام القمر العاشقُ ؟ !

ـ خلف سماء الفضّةِ

في مهد ماسيّ

وأنا ..... ؟ !

أنت القمر وأنت الشَّمسُ

ومهدك حضني

يا طِفلي الغجريّ .

(١٣)

هل أحكي لكْ

(حُكّايةَ) إبريق الزّيتْ ؟

ـ آ ....

ـ آ ... ما ... آ ....

هل أحكي لكْ

(حُكّايةَ) إبريق الزّيتْ ؟

- لأ ...

- لأ ... ما ... لأ ...

هل أحكي لكْ

(حُكّايةَ) إبريق الزّيتْ ؟

.....

.....

.....

ملّ الوقتُ ... انصرفَ

ومرّت أشتيةٌ

وانْطَفَأَتْ نارُ الموقدِ

وانفرطت حبّات البيتْ

آهٍ ....

يا قلب الطّفلِ المسكونْ

بلياليِ كانونَ وموقدِهِ

بالجدّة تحكي ....
(حُكّايةَ) إبريق الزَّيتْ .

شباط | آذار ١٩٩٥

ركبتَ البرقَ ...

فَاتْرُكْ لنا مُهْرَتَكْ...

" لقد كرهتَ أن تسمعها في حياتكَ ...
فَلْنَقُلْها إذاً ، بعد مماتك :
توفيق زيّاد ... إنّنا نُحبّك .... "

مَنْ يمنعُ قافيةً تبكي شاديها ؟ !
من يمنع قافلةً تندب حاديها ؟ !
من يمنع قافيةً ...
من يمنع قافلة ... مَنْ ... ؟ !

حين يجيش الصَّدرُ ،
وحين تغيم سماء القلب المتعبِ
فالدَّمعةُ لا تخجل أن تخرج من حجرتها
لتقول وداعاً ...
والفارس لا يخجل أن يتّكىءَ ،
على سيف الحزنِ
ليبكي الفارسَ هَوْناً ..
وليحملَ بسمته زاداً للدَّربْ
ما أطولَ هذا الدَّربْ ! !
من دونك يا ذا الفارسُ
ما أطول هذا الدَّربْ .
هل سقط الفارسُ ؟ !
ما أصعب أن يسقط هذا الفارسُ
في هذا الزَّمن الصَّعبْ .
في هذا الزّمن الموحشِ

لا يُتّكأُ على نرجسة القلبِ ..
توجّع هذا القلبُ
تمزّق هذا القلبُ ..
و كانت أحلام الفقراء عصافيرَ ،
تُذريّها الريّحُ
فَمَنْ بعدك سوف يُجمّعها
تحت جناح الرَّحمةِ ،
مَنْ بعدكَ يتصدّى لهُواة الصيَّدْ ؟ !
تعِبَ القلبُ ...
فمن بعدك يأخذ أوجاع القلبِ ،
ليرجعها قرصاً من شهدْ .
من بعدك يجمع في باقة شعر وردي ٍ ،
أو إضمامة ورد شعري ٍ
كلَّ حنين الماضي
بأنين الحاضرِ

بالفجر الآتي حتماً
بنشيد الغدّ ...
من بعدكَ ... من ... ! !
حين دعانا مَلَكُ الموت ليعلن فينا ،
أن سقط الفارسُ ..
ضعُفَ القلبُ ،
اهتزّ العقل ... ترجرجَ ...
وانعقلّ لسان الوطنِ ... تلجلجَ ...
هل سقط الفارسُ ..
هل سقط الفارسُ ... ؟ !
يا أسراب حساسين الوطن الثّاكلِ زُفيّهِ .
وأعِدّي ماء الوردِ ،
وبالحنّاء المجبول بدمع النّسوةِ حَنّيهِ .
يا كلَّ شحارير الوطن الباكي
برموش الوطن الباكي لُفّيهِ .

سقط الفارسُ ...

صمت اللّيلُ ..

انتحب اللّيلُ ،

وجفل الصبُّحُ ..

تبسملَ ..

قرأ الفاتحة وحوقلَ ..

مسح الدَّمعةَ

شرب الدَّمعةَ ملحاً

وسعى نحو الجثمان البلّور يسجّيهِ .

وتنادت أرض فلسطينَ ،

وقد أتعبها الثُّكْلُ

وأثقل قامتها الحزنُ

فقامت تتّكىءُ على عُكّاز الدَّهر لتبكيهِ .

" بالهنا كل الهنا يا هنيّهْ

وانكَوَتْ عيني أنا ياصبيّهْ

بالهنا كل الهنا يا هنيّهْ
لا تخلّوهُ بلا بندقيّهْ .
يا صبايا الحيّ هيّئنَ الذبّائح والمواقد والقدورْ
إن سرحان الأمير بن الأمير بن الأميرْ
عاد من غاراته يرتاح في حضني الوثيرْ "*

كان الفارس سرحان الصّخْرةَ ...
كان الزّهرةَ ..
كان الجبل و كان السّهلَ
و كان الحرَّ و كان القرَّ
و كان الدِّفْءَ
و كان الظّلَّ
و كان الواحد في الكلِّ
و كُلاّ في الواحدِ ...
حمل ملامحَ هذا الوطن السّاجد حزناً ..

عاد الفارس سرحانُ
فيا أرْضَ الوطنِ
سألتكِ حضناً للفارسِ
عاد الفارس طفلاً ...
يا أرضُ برفق النّرجس ضُمّيهِ
يا أرض برفق النّرجس ضُمّيهِ .

تموز ١٩٩٤

* " سرحان والماسورة " / توفيق زياد ــ الجديد ، آذار ١٩٦٧، العدد ٣

الفهرس

١) ليس في الحقل سوسن للفرح ٥
٢) عن حضور الذّات عن غياب الفرح ٨
٣) عن طبقيّة منسيّة ١٦
٤) تعالَيْ الى واحة مشتهاة ٢٣
٥) لوحة تجريديّة ٢٧
٦) أعيدوا الى قبرها جُثّتي ٣٠
٧) ركبت على صهوة من سراب ٣٥
٨) لماذا تسير وحيدا ٣٨
٩) أحقّا ترى ما أراه ٤٠
١٠) نزلت على درج الذّكريات ٤٢
١١) لقد زارني الموت ٤٥
١٢) حلمت بأني رجعت صبيّا ٤٨

١٣) لقد مرّ بي ٥٠
١٤) أراك على تلّة من بعيد ٥٢
١٥) عدا خلف داري ٥٤
١٦) لقد أوجع القلب طول الرّجاء ٥٧
١٧) سأفعل كلّ الّذي تطلبين ٦٠
١٨) أراها على بعد ضَوْعَةِ عطر ٦٣
١٩) عن طفل وطفولة
ومنمنمات على جهات الذّاكرة ٦٦
٢٠) ركبت البرق فاترك لنا مهرتك ٨٠

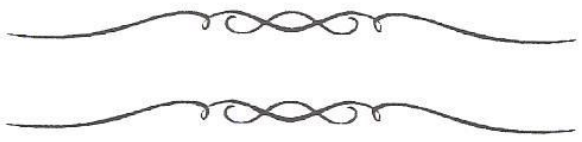

صدر للشّاعر

١) **وطني ينزف حبّا** - شعر - ١٩٧٨ الأسوار | عكا

٢) **وطني رُدَّني الى رُباك شهيدا** - قصص - ١٩٨١ الأسوار |عكا

٣) **أموت قابضاً حجراً** - شعر - ١٩٨٦ الأسوار | عكا

٤) **تمتمات آخر اللّيل** - شعر - ١٩٨٨ الأسوار | عكا

٥) **قابضون على الجمر** - شعر - ١٩٩١ مطبعة ابو رحمون | عكا

٦) **حديث الحواسّ** - شعر - ١٩٩٢ مطبعة ابو رحمن | عكا

٧) **أنتِ سبيّتهم .. وشعري نحيب العاجز** - شعر - ١٩٩٣ مطبعة ابو رحمون | عكا

٨) **عوض يَسْتَرِدُّ صباه** - شعر - ١٩٩٣ مطبعة ابو رحمون | عكا